

الفصل الثاني والعشرون عمرة القضاء

ركب المسلمين إلى مكة - جلاء قريش عن مكة - نزول المسلمين بها - طواف محمد ﷺ وهوولته - زواج محمد من ميمونة - رغبته إلى قريش أن يعرس بمكة ورفضهم ذلك - إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة.

خروج المسلمين إلى مكة:

استدار العام بعد الحديبية، وأصبح محمد ﷺ وأصحابه في حلّ بعهدهم مع قريش من الدخول إلى مكة ومن زيارة الكعبة. لذلك نادى الرسول في الناس كي يتجهزوا للخروج إلى عمرة القضاء بعد أن مُنعوا من قبلُ منها. ومن اليسير عليك أن تقدّر كيف أقبل المسلمون يُلبون هذا النداء ومنهم المهاجرون الذين تركوا مكة منذ سبع سنوات، ومنهم الأنصار الذين كانت لهم مع مكة تجارة وهم إلى زيارة البيت الحرام هوى. لذلك زاد الركب إلى ألفين بعد أن كان ألفاً وأربعمائة في العام الذي سبقه، وتنفيذاً لعهد الحديبية لم يحمل أحدٌ من هؤلاء الرجال سلاحاً إلا سيفاً في قرابه. ولكن محمداً كان يخشى الغدر دائماً. فجهّز مائة فارس جعل على رأسهم محمد بن مسلمة، وبعثهم طليعةً له على ألا يتخطوا حرم مكة، وأن ينحدروا إذا هم بلغوا مرّ الظهران إلى واد قريب منها. وساق المسلمون الهدى أمامهم ستين ناقة وقد تقدّمهم محمد ﷺ على ناقته القصواء، وساروا من المدينة يحدهم شغف أئى شغف بالدخول إلى أم القرى والطواف ببيت الله، ويرقب كل واحد من المهاجرين أن يرى البقعة التي وُلد فيها، والبيت الذي شبّ عن الطوق بين جدرانه، والأصحاب الذين غادر، وأن يتسم عرف هذا الوطن المقدّس وأن يلمس في إجلال وإعزاز ترى القرية المباركة الميمونة التي أنجبت الرسول والتي نزل فيها أوّل ما نزل من الوحي. وتستطيع أن تتصوّر هذا الجيش من المسلمين وعدتهم ألفان يغذون سيرهم نظفر^(١) أمامهم قلوبهم وترقص جَدلاً أفتدتهم؛ فإذا أناخوا جعل كلُّ منهم يقصُّ على أصحابه آخر عهده بمكة أو أيام طفولته بها، أو يحدث عن أصدقائه فيها، أو عن المال الذي ضحى به في سبيل الله عند هجرته منها. تستطيع أن تتصور هذه المظاهرة الفذة من نوعها، يُزجى سيرها الإيمان، ويجذب أصحابها إليه بيت جعله الله مَناباً للناس وأمناً. إنك إذا ل ترى بعين بصيرتك أئى طرب كان يستخفّ هؤلاء الذين حيل بينهم وبين هذا الفرض المقدّس إذ يسرون إليه ليدخلوا مكة آمنين، ومخلّقين رهوسهم ومقصرين، لا يخافون.

(١) الطفر: الرثوب.

إجلاء قريش عن مكة:

وعرفت قريش بمقدّم محمد وأصحابه، فجّلت عن مكة، نزولاً على صلح الحديبية، وصعدت في التلال المجاورة لها حيث ضربت الخيام، وحيث أوى منهم من أوى إلى فيء الشجر. ومن فوق أبي قُبَيْسٍ وجِراء، ومن فوق كل مرتفع مظل على مكة، أطلّ هؤلاء المكيّون ينظرون بعيون كلها تطلع إلى الطريد وأصحابه داخلين بلد البيت الحرام لا يصدّهم عنه صادٌ، ولا يحول بينهم وبينه حائل.

المسلمون أمام البيت الحرام - الطواف بالكعبة:

وانحدر المسلمون من شمال مكة وقد أخذ عبد الله بن رَوَاحَةَ بِخَطَامِ الْقَصْوَاءِ، وأحاط كبار الصحابة بالنبيّ عليه السلام. وسارت الصفوف من خلفهم ما بين راجل ومقعد غارِبَ بعيره. فلما انكشف البيت الحرام أمامهم، انفرجت شفاه المسلمين جميعاً عن صوت واحد منادين: لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ! متوجهين بالقلوب والأرواح إلى وجه الله ذى الجلال، محيطين في هالة من رجاء وإكبار بهذا الرسول الذي بعثه الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله. والحق أنه كان مشهداً فذاً من مشاهد التاريخ التي اهتزت لها أرجاؤه، والتي جذبت إلى الإسلام قلوب أشدّ المشركين صلابة في رثيته وفي عناده. وعلى هذا المشهد الفذّ كانت تقع عيون أهل مكة. وهذا الصوت المنبعث من القلوب يدوي: لَبَّيْكَ! لَبَّيْكَ، كان يخترق آذانهم فيهرّ قلوبهم هزّاً. ولما بلغ الرسول المسجد اضْطَبِعَ^(١) بردائه وأخرج عضده اليماني ثم قال: اللهم ارحم امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة. ثم استلم الركن عند الحجر الأسود وهَرَوَلْ وهَرَوَلْ أصحابه معه، فلماً استلم الركن اليماني مشى حتى استلم الحجر الأسود مَهْرُولاً من جديد ثلاثة أطواف ومشى سائرهما. والألفان من المسلمين يهرولون كلياً هرول، ويمشون كلياً مشى. وقريش تنظر من فوق أبي قُبَيْسٍ، فيأخذها لهذا المنظر البهر^(٢) من كل مكان، وتشهد أنها، وكانت تحدّث عن محمد وأصحابه أنهم في عُسر وشدة وجهه، قد رأّت ما يحو من أفئدتها كل وهم يوهن محمد وأصحابه. وفي حماسة هذه الساعة أراد عبد الله بن رَوَاحَةَ أن يقذف في وجه قريش بصيحة حرب؛ فصّده عمر، وقال له الرسول: «مَهْلًا يا ابن رَوَاحَةَ وقل لا إله إلا الله وحده، نصر عبده وأعزّ جنده. وخذل الأحزاب وحده» أو كما قال؛ فتنادى بها ابن رَوَاحَةَ بأعلى صوته، وردّدها المسلمون من بعده، فتجاوبت بأصداؤها جوانب الوادي، وارتفعت رهبتها إلى قلوب الذين تسنّموا الجبال حوله.

(١) الاضطباع: أن يأخذ الإنسان الإزار أو البرد فيجعل وسطه تحت إبطه الأيمن ويلقي طرفه على كتفه اليسرى من جهتي

سنو، وظهوره.

(٢) البهر: تعجب.

ثلاثة أيام بمكة:

ولما أتت المسلمون الطواف بالكعبة انتقل محمد على رأسهم إلى الصفا والمروة فركب بينهما سبعاً، كما كان يفعل العرب من قبل، ثم نحر الهدى عند المروة وحلق رأسه وأتم بذلك فرائض العمرة. ولما كان الغد دخل محمد إلى الكعبة وبقي بها حتى صلاة الظهر. ولقد كانت الأصنام ما تزال تعمرها. مع ذلك علا بلالٌ سقفها وأذن في الناس لصلاة الظهر عندها. وصلى النبي يومئذ بألفين من المسلمين صلاة الإسلام عند البيت الذي كان يُصدّ من سبع سنين عن الصلاة عنده. وأقام المسلمون بمكة ثلاثة الأيام المفروضة في عهد الحديبية، وقد خلت أم القرى من أهلها. فجلس المسلمون خلالها لا يصيبهم فيها أذى ولا يعترضهم أحد بسوء. والمهاجرون منهم يزورون دورهم ويزيرون أصحابهم من الأنصار إياها، وكأنما هم جميعاً أصحاب هذا البلد الأمين؛ وكلهم يسير سيرة الإسلام يُؤدّي إلى الله كل يوم صلواته فيقتل في نفسه غرورها، ويُعين قويمهم ضعيفهم، وَيَبْرُ غنيهم فقيرهم؛ والنبي ﷺ ينتقل بينهم أباً محبباً محبوباً يبسم لهذا، ويمزج مع ذلك، ثم لا يقول إلا حقاً. وقريش وسائر أهل مكة يُطلون من منازلهم فوق السفوح على هذا المشهد القدّ في التاريخ، يرون رجالاً هذه أخلاقهم، لا يشربون خمرًا، ولا يأتون معصية، ولا يُغريم الطعام ولا الشراب؛ ولا تفتنهم في الحياة فتنة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. أي أثر يترك هذا المنظر الذي سماه بالإنسان إلى ما فوق أسمى مراتب الإنسان؟ من اليسير عليك أن تقدره حين تعلم أن محمداً عاد بعد ذلك بشهور ففتح مكة على رأس عشرة آلاف من المسلمين.

تزوج محمد ﷺ ميمونة - خروج المسلمين إلى المدينة:

كانت أم الفضل، زوج العباس بن عبد المطلب عم النبي، موكّلة من أختها ميمونة في تزويجها، وكانت ميمونة في السادسة والعشرين من عمرها، وكانت خالة خالد بن الوليد. وأقامت أم الفضل زوجها العباس مقامها في تزويج أختها. ولما رأت ميمونة ما رأت من أمر المسلمين في عمرة القضاء هوت إلى الإسلام نفسها، فخاطب العباس ابن أخيه في أمرها وعرض عليه أن يتزوجها. وقبل محمد وأصدقها أربعمئة درهم. وكانت ثلاثة الأيام التي نص عهد الحديبية عليها قد انقضت، لكن محمداً ﷺ أراد أن يتخذ من زواجه ميمونة وسيلة لزيادة في التفاهم بينه وبين قريش. فلما جاءه سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى من قبيل قريش يقولان لمحمد: «إنه انقضى أجلك فاخرج عنا»، قال لها: «ما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه» قال محمد ﷺ ذلك وهو يعلم ما تركت عمرة القضاء في نفوس أهل مكة من أثر، كيف سحرتهم وسكنت من خصومتهم، ويعلم أنهم إن قبلوا دعوته إلى انقطاع فتحدت إليهم وتحذتوا إليه

فتحت مكة أمامه أباها طائفةً. وهذا ما خشى سُهَيْلٌ وَحُوَيْطِبُ؛ لذلك كان جوابها: «لا حاجة بنا إلى طعامك فاخرج عنا». ولم يتردد محمد ﷺ في النزول على رأيها تنفيذاً لعهدته مع قومها، فأذن في المسلمين بالرحيل، وخرج والمسلمون من ورائه. وخلف أبا رافع مولاة على ميمونة حتى أتاه بها بِسْرَفَ^(١) فبني بها. وميمونة أم المؤمنين آخر أزواج النبي، عُمِرَتْ بعده خمسين سنة، ثم طلبت أن تُدْفَنَ حيث بنى بها رسول الله. وحمل محمد ﷺ أختي ميمونة: سَلَمَى أرملة عمه حمزة، وعمارة البكر التي لم تتزوج.

وبلغ المسلمون المدينة وأقاموا بها، محمد ﷺ لا يشك في عظم ما تركت عُمرَةُ القضاء من أثر في نفوس قريش وفي نفوس أهل مكة جميعاً، ولا يشك فيما سينشأ عنها من آثار سريعة خطيرة.

إسلام خالد بن الوليد:

وصدقت الأيام تقديره؛ فإنه ما كاد يتحمل راجعاً إلى المدينة حتى وقف خالد بن الوليد، فارس قريش المُعَلَّم وبطل أحد يقول في جمع منها: «لقد استبان لكل ذي عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر، وأن كلامه من كلام رب العالمين. فحق على كل ذي لب أن يتبعه». وقد فزع عكرمة بن أبي جهل لما سمع، فرد قائلاً: لقد صُبُوت يا خالد. ودار بينها الحديث الآتي:

خالد : لم أصبؤ ولكني أسلمت.

عكرمة : والله إن كان أحق قريش ألا يتكلم بهذا الكلام لأنت.

خالد : ولم؟

عكرمة : لأن محمداً وضع شرف أبيك حين جُرح، وقتل عمك وابن عمك بيد. فوالله ما كنت لأسلم ولأنتكلم بكلامك يا خالد. أما رأيت قريشاً يريدون قتاله؟!

خالد : هذا أمر الجاهلية وحميتها. لكني والله أسلمت حين تبين لي الحق.

وبعث خالد إلى النبي ﷺ بأفراس وبعث إليه بإقراره بالإسلام وعرفانه. وبلغ إسلام خالد أبا سفيان، فبعث في طلبه وسأله: أحق ما بلغه عنه؟ ولما أجابه خالد أنه حق، غضب وقال: «واللأت والعزى لو أعلم أن الذي تقول حقٌ لبدأت بك قبل محمد». قال خالد: «فوالله إنه لحق على رغم من رِغَم». فاندفع أبو سفيان في غضبه نحوه؛ فحجزه عنه عكرمة وكان حاضراً وقال: «مهلاً يا أبا سفيان فوالله لقد خِفتُ للذي خِفتُ أن أقول مثل ما قال خالد وأكون على دينه. أنتم تقتلون خالدًا على رأى رأي آه وقريش كلها تبايعت عليه؛ والله لقد خِفتُ ألا يجوز الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم». وخرج خالد من مكة إلى المدينة، فانضم إلى صفوف المسلمين.

(١) سرف: موضع قريب من مكة، اختلف في تقدير ما بينها بين ستة أميال واثني عشر ميلاً.

إسلام عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة:

وأسلم من بعد خالد عمرو بن العاص، وحارس الكعبة عثمان بن طلحة وقد أسلم بإسلام هؤلاء كثير من أهل مكة وأتبعوا دين الحق. وبذلك قويت شوكة الإسلام. وأصبح فتح مكة أبوابها لمحمد أمراً لا محلّ لريبة فيه.